فرنسا على حقيقتها

للأستاذ علي الجندي

أعرف — كما يعرف غيري — أن فرنسا دولة لا دينية ، ولكني أعرف كذلك أن فرنسا اللادينية هي التي تلقب بابنة الكنيسة البكر ، وتزعم لنفسها حماية الكاثوليك في الشرق من غير أن يطلب منها أحد ذلك ، وأعرف أنها تظاهر بعثات التبشير في كل مكان يمالها ونفوذها العسكري والسياسي ، وأنها تحرق المعابد ، وتهدم المساجد ، وتقتل إخواننا المغاربة في ظل المحاريب ، لأنهم يدعون الله بالدعاء المأثور « يالطيف » ليلطف بهم فيما تصبه عليهم هذه الدولة الناشئة من ألوان العذاب ! وأعرف أنها واقفة للإسلام بالمرصاد في مستعمراتها الشاسعة الواسعة ، لتحول دون نشره بقوة القانون وبقوة السلاح ، مؤثرة أن يبقى الزنوج همجاً متوحشين على الدخول في الإسلام ! ويبلغ بها التعصب أن تمنع عشرة آلاف من سكان « مدغشقر » من اعتناقه بحجة أنهم لا يفرقون بين الإسلام وغيره من الأديان ! بل يبلغ بها التنطع أن تقطع ما بين برابرة المغرب وبين الإسلام من أسباب ؛ وتضرب بينهم وبين إخوانهم العرب بالأسداد ، فتلغي المحاكم الشرعية ، وتغلق المدارس الدينية ، وتخرج القضاة والقراء ومشايخ الطرق ، وتمنع قراءة القرآن وتعليم اللغة العربية ، وتلفق لهم شريعة جديدة من قوانينهم العرفية ، لتسلخهم من الإسلام دفعة واحدة بهذه الطرق الإبليسية !

نعم ، أعرف أن فرنسا دولة لادينية كما قلت ، ولكني كنت أرى في الوقت نفسه هذه الأعمال التي تعيد لنا محاكم التفتيش في أبشع صورها ! فأقف حائراً ذاهلا بين هذه المفارقات المضحكة المبكية ! حتى حل لي هذا الطلسم المعقد حجة الإسلام المرحوم السيد رشيد رضا حين قال ذات يوم في عرض حديث عن فرنسا وأعمالها : إن الفرنسيين واللاتين عامة يتربون في حجور القساوسة قبل أن يتربوا في حجرات المدارس ، ومن هذا كانت كراهتهم للإسلام وللمسلمين وللعرب خاصة ! حتى ولو صاروا ملحدين .

وأعرف أيضاً عرفاناً تقليدياً أن شعار فرنسا : الحرية والإخاء والمساواة ، وأنها تفتح صدرها لطرائد الاستبداد ، وتُسبغ حمايتها على شذّاذ الآفاق من كل جنس ولون ، وأنها لا تبخل بمنح جنسيتها (الغالية) لكل من هب ودب — وإن قصدت من ذلك سد النقص المطرد في عدد سكانها — وأن عاصمتها مرتع خصيب لطلاب المعرفة وطلاب اللذة ، وأنها عاصمة الفن وعاصمة اللهو ، ومدينة النور ومدينة الظلام ، وأن العدالة الاجتماعية بلغت فيها غاية لا مزيد بعدها لمستزيد ، فرئيس جمهوريتها (مسيو) وماسح الأحذية (مسيو) ، والعامل يتقاضى أجراً على الفراغ كما يتقاضاه على العمل ! وأن حرية الأحزاب فيها وتمسكهم بآرائهم قضى ألا يزيد متوسط عمر الوزارات الفرنسية على ستة أشهر منذ قيام الجمهورية الثالثة إلى نشوب هذه الحرب

عرفت هذا جيداً وسمعت إلى جانبه هذه النعوت البراقة التي يخلعها إخواننا المتفرنسون على فرنسا من رقة ولين ودماثة وظرف ، حتى ليلذ للأمريكيين أن يُلجئوا الفرنسيين إلى الإساءة ليستمتعوا بعد ذلك باعتذارهم اللطيف بلغتهم الرشيقة ! ولكني كنت أشاهد أن فرنسا سوط عذاب ونقمة على كل بلد يرفرف عليه علمها المثلث الألوان ، فهي الدولة التي تخرج الأهلين قسراً من أرضهم الخصبة لتوزعها على المستعمرين من أبنائها ، وتعمل جاهدة على فرنستهم في كل مرافق الحياة بقوة الحديد والنار ، وتستنزف أموالهم بما تفرضه من ضرائب باهظة بلغت في سوريا من[1] ٧٠٪ إلى ٨٠٪ على بعض المواد بعد أن كانت من ١١ إلى ٢٥ في العهد العثماني ، وبما تنشئه من الوظائف ذوات المرتبات الضخمة للفرنسيين وصنائعهم وجواسيسهم ، حتى ارتفعت ميزانية النفقات في سوريا من خمسة ملايين ليرة سورية في آخر العهد التركي إلى ٣٦ مليون ليرة ، وارتفع عدد الموظفين من ألف موظف منهم خمسون تركياً يتناولون مرتبات ضئيلة إلى ١٨٢٢٣ موظفاً منهم ١٥٠٠ من الفرنسيين بين مدني وعسكري يتناولون أضخم المرتبات عدا

(١) هذا الاحصاء مأخوذ من كتاب الثورة العربية للأستاذ أمين سعيد

الامتيازات التي تفوق الحصر، هذا إلى ٤٧٥٠٠٠ ليرة تدفع سنوياً للجيش الفرنسي ! أي لتربان السنغال جزاء تنكيلهم بها !

وأشاهد أيضاً أن فرنسا هي الدولة المتخصصة في تدمير القرى الآمنة ودك المدن الأثرية ، وإحراق الزروع ، وتسميم الماشية ، وموارد المياه ، وانتهاك حرمات المنازل ونهب ما فيها ، وتقتيل الشيوخ والنساء والأطفال ، وإعدام الأحرار بالألوف ، ونفي زعماء المجاهدين إلى جزيرة الشيطان ، والإمعان في إذلال وطنية الشعوب وخنق روحها ، حتى كان في تونس ناد — لعله لا يزال قائماً — كتب على واجهته « ممنوع دخول العرب والكلاب » !

كنت أرى وأسمع فأقف مضطرباً مشدوهاً بين هذه المتناقضات الفرنسية حتى كشف لي عن السر السيد الحسن بوعياد من أحرار مراكش ومجاهديها في أعمال زيارته للقاهرة منذ سنوات قال — وهو يقص علينا طرفاً من أعمال فرنسا في مراكش — إن الفرنسيين في بلادهم غيرهم في بلادنا ، لقد قابلت مدير البريد في (مرسيليا) لبعض الشئون ، فهنأني برقته وسلامة حاشيته ، فلو أن الفرنسيين في مراكش كانوا من هذا الطراز المهذب الوديع لتشبثنا ببقائهم إذا أرادوا الخروج

من هذا الوقت عرفت أن الفرنسي ذو طبيعتين ، فهو عند دمث كيس في فرنسا ، وفظ غليظ عتل في كل بلد يُنكب بسيطرته عليه ولو كان في أوربا نفسها ! فسياسة العنف التي سلكتها فرنسا إزاء الألمان عقب الحرب الماضية وتشددها في تقاضي التعويضات وتشجيعها زنوج السنغال على الاختلاط بالفتيات الألمانيات ، وعجرفة النمر الفرنسي « كليمنصو » والنقطة المربعة « بوانكاريه » وخلفاؤهم من الغلاة أمثال « تردیو » و « برتو » القائلين : بأن المغلوب يظل مغلوباً أبداً ، وتمسكهم بمبدأ السلامة الإجماعية ، وإصرارهم على نصوص معاهدات كان يصفها السياسة دائماً « بأنها عجينة مصنوعة من بيض فاسد » ثم عدم مسايرتهم للسياسة الإنجليزية في تشجيع جمهورية « فيمار » الألمانية الناشئة ، كل أولئك من أقوى الأسباب في إنبات هذا النبات الشيطاني المسمى « النازية » والتمهيد لقيام الطاغية « هتلر » وما استتبع ذلك من وقوع للمأساة العالمية التي خربت البلاد وأفنت العباد !

هذه هي فرنسا في صورتها الأصيلة : حرة ومستبدة ، لينة وقاسية ، كنيسة ومتاطرسة ، متمدينة ومتوحشة ! ولكن حذار فهذه الجوانب الزاهية التي تلبس غلالة إنسانية في الظاهر ، فاكهة محرمة على غير الفرنسيين ! وهي بضاعة لم تصدر قط — وان تصدر — من « مرسيليا » و « تردو » و « الهافر » إلى الخارج!

فلا يعجبن الأستاذ سيد قطب من قول مجادله « إنك لم تعش في فرنسا » إلى آخر ما قال ، فلهذا « البارزيائي » بعض العذر ، لأنه كان يتكلم وخياله عالق بضفاف السين وغابة بولونيا وعاصمات الأزياء !

ولو أنه رنا ببصره إلى فاس والجزائر وتونس العاليات ، وإلى دمشق وحمص وحماه الداميات ، لتورع أن ينطق بهذا الهذر والهذيان !

علي الجندي

ظهرت اليوم :

قصة طروادة

قصة الحب والحرب والبطولة — لهوميروس الخالد ، متضمنة ملحمته (الإلياذة) — وهي الحلقة الثانية من روائع الأدب اليوناني التي يقدمها نثراً خفيفاً :

الأستاذ

دريني خشبة

وتصدرها : دار الكتب الأهلية بميدان الأوبرا بالقاهرة

ثمن النسخة ٢٥ قرشاً والبريد خمسة قروش

واحرص على نسختك من الحلقة الثالثة من قصة : « الأوذيسة » فهي تحت الطبع